

تفسير ابن كثير

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن وأيس هو وامرأته سارة من الولد فجاءته الملائكة وهم ذا هبون إلى قوم لوط فبشروهما بإسحاق فتعجبت المرأة من ذلك وقالت { يا ويلتني أللد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر إه } رحمة إه وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد } فبشروهما مع وجوده بنبوته وبأن له نسلا وعقبًا كما قال تعالى : { وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين } وهذا أكمل في البشرة وأعظم في النعمة وقال { فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب } أي ويولد لهذا المولود ولد في حيا تكما فتقر أعينكما به كما قررت بوالده فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوجهوا أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشرة به وبولده باسم يعقوب الذي فيه استيقاظ العقب والذرية وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ونزع عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبا إلى عبادة إه في الأرض فعوضه إه عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه لتقر بهم عينه كما قال تعالى : { فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون إه وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا } وقال ه هنا { ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا } قوله { ونوح هدينا من قبل } أي من قبله هديناه كما هديناه ووهبنا له ذرية صالحة وكل منها له خصوصية عظيمة أما نوح عليه السلام فإن إه تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه في السفينة جعل إه ذريته هم الباقيين فالناس كلهم من ذريته وأما الخليل إبراهيم عليه السلام فلم يبعث إه بعده نبيا إلا من ذريته كما قال تعالى : { وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب } الآية وقال تعالى { ولقد أرسلنا نوح وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب } وقال تعالى : { أولئك الذين أنعم إه عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلوا عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا } قوله في هذه الآية الكريمة { ومن ذريته } أي وهدينا من ذريته { داود وسلامان } الآية وعود الضمير إلى نوح لأنه أقرب المذكورين ظاهر لا إشكال فيه وهو اختيار ابن جرير وعده إلى إبراهيم لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن لكن يشكل عليه لوط فإنه ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه ماران بن آزر اللهم إلا أن يقال إنه دخل في الذرية تغلبيا وكما قال في قوله { أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آباءك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون } فإسماعيل عمده دخل في آباء تغلبيا وكما قال في قوله { فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس } فدخل إبليس في أمر

الملائكة بالسجود وذم على المخالفه لأنه كان في تشبه بهم فعومنا معاملتهم ودخل معهم تغليبا وإلا فهو كان من الجن وطبيعته من النار والملائكة من النور وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر دلالة على دخول ولد البناء في ذرية الرجل لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه عليها السلام فإنه لا أب له قال ابن أبي حاتم : حدثنا سهل بن يحيى العسكري حدثنا عبد الرحمن بن صالح حدثنا علي بن عباس عن عبد الله بن عطاء المكي عن أبي حرب بن أبي الأسود قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال : بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم تجده في كتاب الله - وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟ قال أليس تقرأ سورة الأنعام { ومن ذريته داود وسليمان } حتى بلغ { ويحيى وعيسى } قال بلـى قال أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب ؟ قال صدقـتـ فلهـذاـ إذاـ أوصـيـ الرـجـلـ لـذـريـتهـ أـوـ وـقـفـ عـلـىـ ذـرـيـتهـ أـوـ وـهـبـهـمـ دـخـلـ أـوـلـادـ الـبـنـاتـ فـيـهـمـ فـأـمـاـ إـذـاـ أـعـطـيـ الرـجـلـ بـنـيـهـ دـخـلـ أـوـلـادـ الـبـنـاتـ فـيـهـمـ فـأـمـاـ إـذـاـ أـعـطـيـ الرـجـلـ بـنـيـهـ أـوـ وـقـفـ عـلـىـهـمـ فـإـنـهـ يـخـصـ بـذـلـكـ بـنـوـهـ لـصـلـبـهـ وـبـنـوـ بـنـيـهـ وـاحـجـواـ بـقـوـلـ الشـاعـرـ العـرـبـيـ :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأجانب .

وقال آخرون : ويدخل بنو البناء فيهم أيضا لما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للحسن بن علي [إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين] فسماه ابنا فدل على دخوله في الأبناء وقال آخرون : هذا تجوز وقوله { ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم } ذكر أصولهم وفروعهم وذوي طبقتهم وأن الهدایة والاجتباء شملهم كلهـ ولـهـذاـ قـالـ { واجتبـيـنـاـهـ وـهـدـيـنـاـهـ إـلـىـ صـرـاطـ مـسـتـقـيمـ } ثم قال تعالى : { ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده } أي إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهذا يهـدىـهـ إـيـاهـمـ { ولو أـشـرـكـواـ لـحـبـطـ عـنـهـمـ ماـ كـانـواـ يـعـمـلـونـ } تشـدـيـدـ لأـمـرـ الشـرـكـ وتـغـلـيـطـ لـشـأنـهـ وـتـعـظـيمـ لـمـلـابـسـتـهـ كـقـوـلـهـ تعالىـ : { ولـقـدـ أـوـحـيـ إـلـيـكـ إـلـىـ الـذـيـنـ مـنـ قـبـلـكـ لـئـنـ أـشـرـكـتـ لـيـحـبـطـ عـمـلـكـ } الـاـيـةـ وـهـذـاـ شـرـطـ وـالـشـرـطـ لـاـ يـقـتـضـيـ جـوـارـ الـوـقـوـعـ كـقـوـلـهـ { قـلـ إـنـ كـانـ لـلـرـحـمـنـ وـلـدـ فـأـنـاـ أـوـلـاـ العـابـدـيـنـ } وـكـقـوـلـهـ { لـوـ أـرـدـنـاـ أـنـ تـخـذـ لـهـوـاـ لـاتـخـذـنـاهـ مـنـ لـدـنـاـ إـنـ كـنـاـ فـاعـلـيـنـ } وـكـقـوـلـهـ { لـوـ أـرـادـ اللهـ أـنـ يـتـخـذـ وـلـدـاـ لـاصـطـفـيـ مـاـ يـخـلـقـ مـاـ يـشـاءـ سـبـحـانـهـ هوـ اللهـ الـوـاحـدـ الـقـهـارـ } وـقـوـلـهـ تعالىـ : { أـوـلـئـكـ الـذـيـنـ آـتـيـنـاـهـ الـكـتـابـ وـالـحـكـمـ وـالـنـبـوـةـ } أي أنـعـمـنـاـ عـلـيـهـ - بذلك رحمة للعباد بهـمـ وـلـطـفـاـ مـنـاـ بـالـخـلـيقـةـ { إـنـ يـكـفـرـ بـهـاـ } أي بـالـنـبـوـةـ وـيـحـتـمـلـ أـنـ يكونـ الضـميرـ عـائـداـ عـلـىـ هـذـهـ الـأـشـيـاءـ الـثـلـاثـةـ الـكـتـابـ وـالـحـكـمـ وـالـنـبـوـةـ وـقـوـلـهـ { هـؤـلـاءـ } يـعـنـيـ أـهـلـ مـكـةـ قـالـهـ اـبـنـ عـبـاسـ وـسـعـيـدـ بـنـ الـمـسـيـبـ وـالـضـحاـكـ وـقـتـادـةـ وـالـسـدـيـ وـغـيرـ وـاـحـدـ { فـقـدـ وـكـلـنـاـ بـهـاـ قـوـمـاـ لـيـسـوـاـ بـهـاـ بـكـاـفـرـيـنـ } أي إـنـ يـكـفـرـ بـهـذـهـ النـعـمـ مـنـ كـفـرـ بـهـاـ مـنـ قـرـيشـ وـغـيرـهـمـ مـنـ سـائـرـ أـهـلـ الـأـرـضـ مـنـ

عرب وعجم ومليين وكتابين فقد وكلنا بها قوما آخرين أي المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيمة { ليسوا بها بكافرين } أي لا يجحدون منها شيئا ولا يردون منها حرفًا واحدًا بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشا بها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه ثم قال تعالى مخاطبا عبده رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم { أولئك } يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباء { الذين هدى الله } أي هم أهل الهدى لا غيرهم { فبهدائهم اقتده } أي اقتد واتبع وإذا كان هذا أمراً للرسول صلى الله عليه وسلم فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به قال البخاري عند هذه الآية : حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام أن ابن جريج أخبرهم قال : أخبرني سليمان الأحول أن مجاهداً أخبره أنه سأله ابن عباس أفي (ص) سجدة ؟ فقال نعم ثم تلا { ووهبنا له إسحاق ويعقوب } إلى قوله { فبهدائهم اقتده } ثم قال هو منهم زاد يزيد بن هارون ومحمد بن عبيد وسهل بن يوسف عن العوام عن مجاهد قلت لابن عباس فقال نبيكם الله صلى الله عليه وسلم من أمر أن يقتدي بهم وقوله تعالى : { قل لا أسألكم عليه أجرا } أي لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجراً أي أجراً ولا أريد منكم شيئاً { إن هو إلا ذكرى للعالمين } أي يتذكرون به فيرشدوا من العمى إلى الهدى ومن الغي إلى الرشاد ومن الكفر إلى الإيمان